ملف

الإخوان المسلمون في الغرب

المنفى والدعوة والسياسة

محمد الدخاخني

الإخوان المسلمون في الغرب: المنفى والدعوة والسياسة

يسعى لورينزو فيدينو، وهو أكاديميّ وخبير أمنيّ إيطاليّ مختصّ في الإسلامويّة والعنف السّياسيّ في أوروبا وأمريكا الشّماليّة، في دراسته المطوّلة «الإخوان المسلمون في الغرب: التطوّر والسّياسات الغربيّة» (شباط/فبراير ٢٠١١)، إلى تقديم نظرة عامّة على هذه الجماعة المثيرة للجدل والنقاشات المحيطة بها، متناولاً تاريخ وتطور وطرق عمل وأهداف فروعها في الغرب.

وتعدّ هذه الدّراسة تلخيصاً لبعض الأجزاء التي وردت في كتاب فيدينو الأخير «الإخوان المسلمون الجدد في الغرب»، الذي نشرته مطبعة جامعة كولومبيا في عام ٢٠١٠. وهو زميل الآن لدى مؤسّسة راند للأبحاث والتّنمية في واشنطن العاصمة

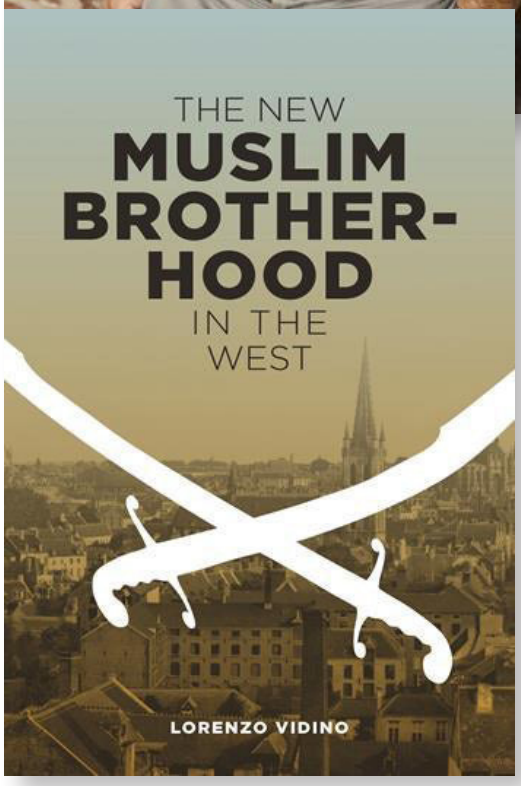

المنفى يتحوّل إلى وطن

يمكن أخذ عقدي الخمسينيّات والسّتينيّات بوصفهما اللّحظة التّأسيسيّة لوجود جماعة الإخوان المسلمين في أوروبا وأمريكا الشّماليّة. ففي تلك الفترة، كما يشير فيدينو، هاجر إلى الغرب عدد من المنتسبين إلى الفرع الأمّ للجماعة في مصر، مثل سعيد رمضان، صهر مؤسّس الجماعة حسن البنا ووالد الأكاديميّ الإسلامويّ طارق رمضان، ويوسف ندا، القياديّ الإخوانيّ الذي اتّهمته حكومة بوش لاحقاً بـ«تمويل الإرهاب». وكانت هجرة هؤلاء إلى جانب آخرين سببها الحملة الضّارية التي شنّها الرئيس المصري الراحل، جمال عبد الناصر، على إخوان مصر.

وفيما يخصّ طبيعة هؤلاء الذين هاجروا، يُلاحِظ الكاتب أن غالبيتهم كانوا من المتعلّمين والمدينيّين وأبناء الطّبقات الوسطى والطّلاب، الّذين احتكّوا بالإخوان بشكل أو بآخر في بلدهم الأصليّ أو كانوا بالفعل أعضاء منتظمين.

في هذه الأثناء، كانت الجالية المسلمة في أوروبا وأمريكا الشّماليّة في حالة عوز فيما

يمكن أخذ عقدي الخمسينيات والستينيات بوصفهما اللحظة التأسيسيّة لوجود جماعة الإخوان بأوروبا وأمريكا الشمالية

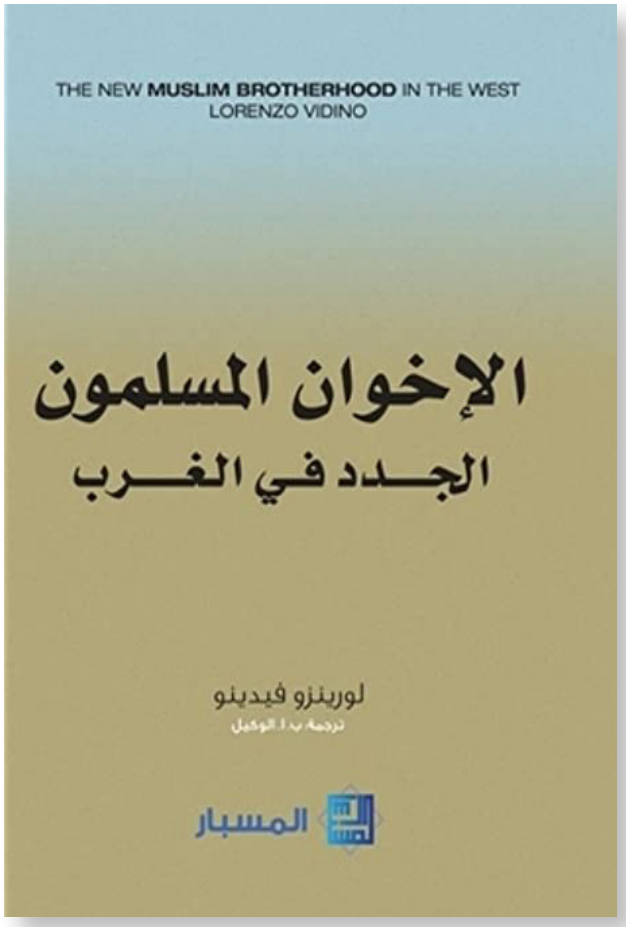

يتعلّق بدور العبادة والمؤسّسات المعنيّة بالأنشطة الدّينيّة، وقد أخذ الأعضاء من ذوي الخبرة والمتحمّسين على عاتقهم مهمّة شغل هذا الفراغ. فأسّسوا، مستثمرين الحريّات التي تتيحها القوانين الغربيّة في هذا الصّدد، مساجد وزوايا ونشروا مجلّات وعقدوا ندوات تروّج لتصوّرهم للإسلام. وقاموا بإشباع العاطفة والاحتياجات الدّينيّة لدى الجاليات المسلمة المتزايدة. وفيما بعد، أنشأوا مراكز أبحاث ومدارس ومؤسّسات تعليميّة.

وبهذا، تحوّل الغرب من مجرّد منفى مؤقت وملاذ عابر إلى وطن وحياة جديدين. وصارت جماعة الإخوان المسلمين، كما يؤكّد الكاتب، الأكثر نفوذًا من النّاحية السّياسيّة، والأقوى صِلة من بين كافّة التّنظيمات الإسلامويّة الأخرى بالنُخَب الغربيّة، في العقود الأخيرة.

أسس أيديولوجيّة جديدة

هذا التّحوّل كان من الضروريّ أن يصحبه تحوّل مماثل في الرّؤية الأيديولوجيّة. ففيما كانت قلوب روّاد الإخوان، في الخمسينيّات، ما تزال في بلدانهم الأصليّة، التي اعتقدوا أنّهم سيقومون بالعودة إليها يوماً ما لتأسيس حلم «الدّولة الإسلاميّة»، إلّا أنّ بعضهم قرّر التّعاطي مع الواقع الجديد من منظور مختلف. إنّ التّصنيف القديم الّذي يضع البلدان الغربيّة ضمن «دار الحرب»، ويضع بلدان المَولِد ضمن «دار الإسلام»، لم يعد صالحاً بالنّسبة إليهم.

صحيحٌ أنّ الغرب لا يمكن أن يصنّف داراً للإسلام، بما أنّ الشّريعة لا تُطبّق هناك، لكنّه لا يمكن أيضاً، كما رأى، أن يصنّف داراً للحرب؛ لأنّ المسلمين يُسمح لهم بممارسة

في السبعينيات والثمانينيات اعتنقت شبكات الإخوان بالغرب الرّؤية التي روّج لها إخوان مصر خلال حكم السّادات ومبارك

دينهم بحريّة ولا يجري اضطّهادهم. ومن هنا، ظهرت الحاجة إلى مفهوم تصنيفيّ جديد يكسر هذه الثّنائيّة الضدّية، هو «دار الدّعوة»، حيث يعيش المسلمون كأقلّية -وهو الوضع الّذي سيسهم لاحقاً في ظهور مفهوم «فقه الأقليّات» على يد علماء الحركة الإسلامويّة والمتأثّرين بخِطَابهم- ويتم احترامهم ويجب عليهم دعوة الآخرين بشكل سلميّ إلى الإسلام.

وفي السّبعينيّات والثّمانينيّات، اعتنقت شبكات الإخوان المسلمين في الغرب بشكل ما الرّؤية الّتي روّج لها إخوان مصر في سني حكم الرّئيسين السّادات ومبارك والّتي تقوم على التوسّع التّدريجيّ والمشاركة البطيئة، عوضاً عن الصدام الّذي لم يفض إلى شيء أيّام عبد النّاصر. ففي السّياق الغربيّ، وعلى عكس السّلفيّين، كما يُلاحِظ فيدينو، لم يقم الإخوان بتشجيع المسلمين على الانعزال عن المجتمعات الغربيّة للحفاظ على هويّتهم، وإنّما حثّوهم على الاحتكاك، وعلى حدّ تعبير القياديّ الرّوحيّ للإخوان المسلمين في العالم، يوسف القرضاويّ، للجاليات المسلمة: «كونوا محافظين بلا انعزال، ومنفتحين بلا ذوبان».

تلعب الصِلات الشخصية والصداقات والارتباطات العائلية وعلاقات العمل أدوراً مهمة في إبقاء الإخوان بالغرب متماسكين ومتوحدين

لكن مع التّأكيد على حقيقة وصول مفاهيم وأُطُر وقضايا الإخوان إلى الجّاليّات المسلمة في الغرب، فإنّ غالبية النّسيج الاجتماعيّ للمسلمين في أوروبا وأمريكا الشّماليّة، كما يؤكّد الكاتب، يقاوِم بنشاط نفوذ هذه الجّماعة أو يرفضه ببساطة.

من تمثيل المسلمين إلى التّأثير في السّياسات

بالرّغم من انعدام وجود صيغة رسميّة للإخوان المسلمين في الغرب؛ حيث ما من مؤسّسة واحدة مسجّلة رسمياً بهذا الاسم، إلّا أنّه في كافّة البلدان الغربيّة، وفقاً للكاتب، هناك منظّمات وشبكات لديها صِلات تاريخيّة وماليّة ومؤسّسيّة وشخصيّة وأيديولوجيّة بالإخوان المسلمين، وجماعات «صحويّة» أخرى لها وجود عالميّ من قبيل «الجماعة الإسلاميّة» الّتي تستهدف مسلمي جنوب آسيا وحركة «مللي غوروش» الّتي تستهدف المسلمين الأتراك.

واليوم، عندما تحاول الحكومات أو وسائل الإعلام الغربيّة التّواصل مع الجاليات المسلمة، فإنّ المؤسّسات أو الأفراد الّذين ينشطون لتمثيل هذه الجّاليات والتحدّث

يجادل المتشائمون بأنّ إخوان الغرب يعملون على مشروع هندسة اجتماعية يسير ببطء ولكن بإصرار ويهدف إلى أسلمة السّكان

باسمها هم، وفقاً للكاتب، ضمن شبكة الإخوان المسلمين في الغرب. وبالتّالي، يحاول هؤلاء النشاط دائماً في عمليّات تعيين الأئمة في المؤسّسات العامّة مثل؛ الجيش والشرطة والسّجون، بل الانخراط والتّحكم في كافّة النّشاطات الاجتماعيّة والتّعليميّة والدّينية والرّياضّية للجاليات المسلمة .

وتلعب الصِلات الشّخصيّة والصّداقات والارتباطات العائلية وعلاقات العمل، فضلاً عن الرؤية المشتركة، أدوراً مهمّة في إبقاء الإخوان المسلمين في الغرب متماسكين ومتوحّدين. كما تسمح المرونة والاستقلاليّة النّسبيّة في التحرّك على الأرض الّتي تُعطَى للمجموعات في كلّ بلد، مع التّشارك في المبادئ والأهداف، بسهولة التوّسع والتّمدّد واكتساب الأتباع.

وفي نهاية المطاف، يتمثّل هدف هذه الشّبكة في التّأثير على صُنّاع القرار الغربيّين في كافّة القضايا المتعلّقة بالإسلام، والسّياسات المحليّة للأقلّية المسلمة، والأهم من ذلك السّياسات الخارجيّة للحكومات الغربيّة. ويرى الكاتب أن القرضاويّ من أهم المنظّرين لفكرة دعم الإخوان لأجندتهم الإسلامويّة من خلال مسارات السّياسة الغربيّة.

لا يحظى كثير من صُنّاع القرار والمشرّعين الأمريكيين والأوروبيين، بحسب فيدينو، بالمعرفة الأساسيّة حول الإسلام والإسلامويّة

استجابة الحكومات الغربيّة

تنوّعت مواقف الحكومات الأوروبيّة والأمريكيّة من الإخوان المسلمين، بين النظر إليهم كأصدقاء محتملين وأعداء مخادعين وشيء ما بين بين. وكما يلخّص الأمر أحد المسؤولين الأمريكيّين: «قدمٌ في عالمنا، وأخرى في العالم المعادي لنا. وإنّه لأمر معقّد بشدّة الوصول إلى طريقة لمعرفة الجّيّد من السّيئ من المشبوه في ذلك». ويؤكّد الكاتب على تعقيد وتباين السّياسات الغربيّة تجاه الإخوان المسلمين، واصفاً إيّاها بشكل عام بالسياسات التي تعاني من حالة انفصام.

ويقسّم فيدينو المحلّلين الغربيّين في تعاطيهم مع الإخوان إلى نوعين؛ متفائلين ومتشائمين. يجادل المتفائلون بأنّ إخوان الغرب لم يعودوا مشغولين بتأسيس دولة إسلاميّة في العالم الإسلاميّ، وإنّما يركّزون على القضايا الاجتماعيّة والسّياسيّة التي تهمّ المسلمين في الغرب، والدّفاع عن مصالح الجاليات المسلمة ودفعها للاندماج في المجتمعات الغربيّة، وتقديم نموذج معتدل يوازن بين الهويّة الإسلاميّة والعيش في مجتمع غربيّ، وأنّهم ضدّ التّطرّف والعنف.

ومن ناحية أخرى، يجادل المتشائمون بأنّ إخوان الغرب يعملون على مشروع

عادة ما يصوّت المسلمون في أوروبا إلى أحزاب اليسار، شأنهم في ذلك شأن الجماعات المهاجرة

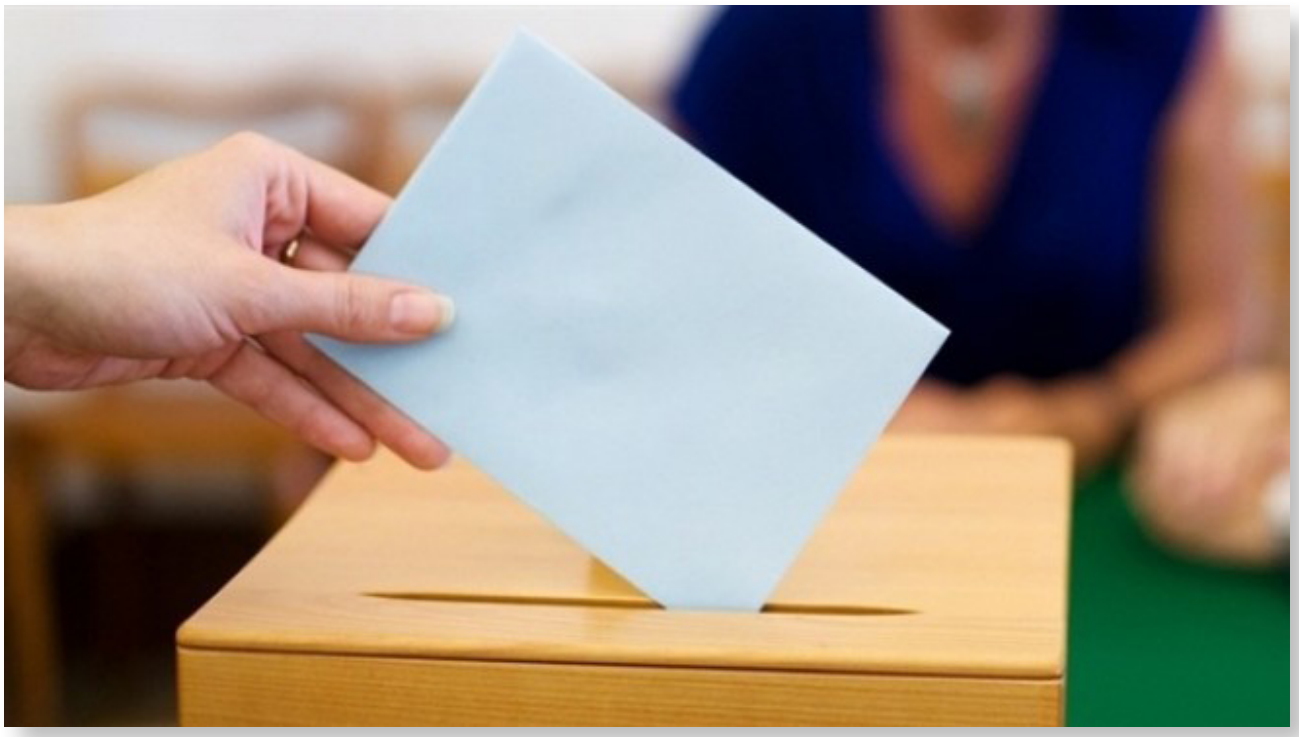

هندسة اجتماعيّة يسير ببطء ولكن بإصرار ويهدف إلى أسلمة السّكان المسلمين في الغرب والتّباري مع الحكومات الغربيّة في كسب ولائهم. ويتّهم هؤلاء الإخوانَ بادّعاء الاعتدال ولعب دور حصان طروادة لزعزعة المجتمعات الغربيّة وإضعافها بهدف تطبيق النّظام الإسلاميّ، وأنّ نهجهم التدريجيّ وانخراطهم ضمن الإطار العام للدّيمقراطيّة الغربيّة ليس أكثر من حسابات تكتيكيّة أو حرب باردة ينتهجها الإخوان؛ لأنهم في لحظة ضعف، وليس أمامهم إلّا صداقة المؤسّسات الغربيّة من أجل تنفيذ أجندتهم، بما أنّ النّهج الجّهاديّ لم يكسب تنظيم القاعدة مثلًا أي شئ.

ويشير المتشائمون إلى التّناقض الموجود بين خطاب الإخوان المسلمين إلى الغرب وخطابهم إلى الشّعوب الإسلاميّة؛ ففي حواراتهم مع المسؤولين ووسائل الإعلام الغربيّة يؤكّدون على قِيَم الدّيمقراطيّة والاندماج، ولكن عندما يتحدّثون بالعربيّة أو الأرديّة أو التّركيّة يستخدمون خطاب «نحن وهم» المعادي للاندماج والتّسامح. وفيما يتحدّث الإخوان عبر القنوات التّلفزيونيّة في الغرب عن الحوار بين الأديان والاندماج في المجتمعات الغربيّة، فإنّهم يتحدّثون في مساجدهم عن شرور المجتمعات الغربيّة. وفيما يقومون بإدانة التّفجيرات الانتحاريّة والعمليّات الإرهابية في بياناتهم الرّسمية، فإنّهم يستمرون في جمع

يلعب الإخوان على أوتار تاريخية معينة تختلف بين دولة وأخرى فمثلاً ينعتون نقّادهم في أمريكا بالمكارثيّين وفي إيطاليا بالفاشيّين

التّبرعات من أجل تمويل جماعات مسلّحة حول العالم. وكما يقول مسؤول غربيّ: «شأنهم شأن أيّ جماعة فاشيّة تسير في طريقها إلى السّلطة، لدى الإخوان طلاقة لسان في استخدام الخطاب الازدواجيّ». وينقل الكاتب عن مسؤولين غربيّين في الأجهزة الأمنيّة في فرنسا وبلجيكا وهولندا مقولات مشابهة.

المعرفة والانتخابات والإسلاموفوبيا

يرى الباحث الإيطاليّ لورينزو فيدينو، زميل مؤسّسة راند للأبحاث والتّنمية في واشنطن العاصمة، أنّ التّعدد الذي تتّصف به مواقف الحكومات الغربيّة تجاه حركة الإخوان المسلمين في مجتمعاتها ينسحب أيضاً على الحكومة الواحدة، التي يمكن أن يختلف داخلها موقف وزير عن نظيره فيما يتعلّق بالقضيّة الإسلامويّة. ويُرجِع الباحث ذلك الاختلاف إلى عدد من العوامل.

بالرّغم من وضوح موقف الوكالات الاستخباراتيّة الأوروبيّة عادة، وهو موقف سلبيّ من الإخوان، إلّا أنّ الحكومات والمشرّعين والبيروقراطيّين غير ملزمين بالموقف

الاستخباراتيّ، وغالباً ما تكون لديهم وجهات نظر مغايرة. فالخبراء من داخل وخارج الحكومات يؤثّرون على آراء صنّاع القرار، ممّا يأخذ الأمور إلى وضعيّة معقّدة وغالباً فوضويّة تعتنق فيها المؤسّسات سياسات متناقضة. وبالتّالي، لا يمكن الحديث عن حكومة أوروبيّة تتبنّى اتّجاهاً موحّداً وواضحاً بخصوص الإخوان.

وقد تمتلك الحكومة ميولاً سلبيّة نحو الإخوان لكنّها ترضخ للتّعاون معهم بغرض تحقيق أهداف قصيرة المدى أو تكتيكيّة، وفي أوقات أخرى تمتلك نظرة إيجابية نحوهم لكنّها تمتنع عن التّعاون معهم تحت ضغط الصّحافة والإعلام. ويحصل أن تؤثّر أجهزة وأجنحة في الدّولة ذاتها على أخرى.

فجوة معرفيّة وعوائق بيروقراطيّة

لا يحظى كثير من صُنّاع القرار والمشرّعين الأمريكيّين والأوروبيّين، بحسب فيدينو، بالمعرفة الأساسيّة حول الإسلام والإسلامويّة. وتشير تقارير كثيرة وحِوارات أجريت مع سياسيّين غربيّين إلى عدم معرفتهم ببديهيّات الأمور، من قبيل الفارق بين السّنة والشّيعة، وإلى أيّ المذهبين تنتمي حركة حماس أو حزب الله. وتأتي المبادرة بالتّعاون والانخراط مع الإخوان المسلمين،غالباً، على يد هذا النّوع من المسؤولين الحكوميّين ذوي المعرفة الضّحلة.

ومن بين الأمور الّتي تُسهِم في صناعة هذا الجهل المستشري، كما يصفه الباحث، عزوف المحلّلين والخبراء المختصّين، عن العمل مع الحكومات وتفضيلهم العمل مع القطاع الخاصّ؛ حيث ثمّة رواتب وامتيازات أفضل؛ بل إنّ قلّة موهوبة بين هؤلاء المختصّين تتابع بحرص تطوّر الأوضاع.

ومن أجل التّعامل مع هذه الفجوة المعرفيّة، تلجأ المؤسّسات الحكوميّة إلى تعيين مستشارين ومحلّلين من داخل الجاليات المسلمة، إلّا أنّ هذا كثيراً ما

يـؤدّي إلى تـسرّب بعـض المتعاطفـين مـع الإخـوان إلى دائـرة صنـع القـرار، ولـم يفـوّت هـؤلاء الفرصـة في أيّ مـرّة للتّأثـير في الحكومـة لـكي تتّخـذ سياسـات تخـدم مصلحـة الأجنـدة الإسـلامويّة.

وتـؤدّي عـدم مشـاركة أجهـزة الاسـتخبارات الغربيّـة لكثـير مـن معلوماتهـا مـع الحكومـة إلى ترسيخ العقبـات المعرفيّـة. وعـلاوة عـلى ذلـك، تجعـل العوائـق البيروقراطيّـة في عمليّـات تبـادل المعلومـات، وتفضيـل التّعامـل مـع المؤسّسـات الأعـلى صوتـاً والأوضـح بنيـة، التّعامـل مـع الإخـوان أسـهل مـن منافسـيهم.

والعراقيـل القانونيّـة الّـتي تحـصر عمـل أجهـزة الأمـن في بعـض الـدّول الغربيّـة، مثـل الولايـات المتّحـدة وبريطانيـا والدنمـارك، في التّهديـدات المبـاشرة والآنيـة للأمـن القومـيّ تلعـب دوراً في التّغـاضي عـن ممارسـات جماعـة الإخـوان البطيئـة والتدريجيّـة. وإن كان الوضـع مختلفـاً في دول مثـل؛ ألمانيـا وهولانـدا؛ حيـث يسـمح لأجهـزة الأمـن بحريّـة أكـبر في تتبّـع مـا تـراه تهديـداً عـلى النّظـام الدّيمقراطـيّ والتّماسـك الاجتماعـيّ، بالمعـنى الواسـع لهـذه التّعبـيرات.

دوافع السياسيين الغربيين

ليسـت القناعـات الشّـخصيّة ولا الأجنـدات الحزبيّـة وحدهـا مـا يحـرّك السياسـيّين الغربيّين. وكمـا سـبقت الإشـارة، تلعـب الحمـلات الصّحافيّـة والإعلاميّـة مثـلاً دوراً مهمّـاً في عـزوف كثـير مـن السّياسـيّين عـن قراراتهـم بالتّعاطـي بشـكل إيجـابي مـع الإخـوان المسـلمين. لكـن، وفقـاً للباحـث، تـأتي الانتخابـات عـلى رأس المحـدّدات الحاسـمة في عقـد التّحالفـات أو فكّهـا. وتحّـرك الرّغبـة في النّجـاح الانتخـابيّ كثـيراً مـن السّياسـيّين نحـو خطـب ودّ المجتمعـات المسـلمة في دولهـم، ولا سـيما المجموعـات المنظّمـة داخلهـا.

ويعـدّ «الصّـوت المسـلم» محوريّـاً في الانتخابـات في مـدن أوروبيّـة مثـل؛ روتـردام وأمسـتردام وبرادفـورد ومالمـو، وبعـض المناطـق في لنـدن وباريـس، وتسـعى إليـه كافّـة القـوى السّياسـيّة. وفي بروكسـل؛ حيـث يشـكل المسـلمون حاليـاً نحـو ١٧٪ مـن مجمـل السّـكان، يتنافـس السّياسـيون عـلى أصـوات المسـلمين - ومـن المـدن الأخـرى الـتي تزيـد فيهـا نسـبة المسـلمين عـن ١٠ ٪ كولونيـا وكوبنهاغـن.

ومـن ناحيتهـم، يسـتغلّ الإخـوان المسـلمون هـذه الحاجـة السّياسـيّة، باعتبارهـم الأكـثر تنظيمـاً والأقـدر عـلى تعبئـة المصوّتـين وتوزيـع المنشـورات واسـتخدام المؤسّسـات الّـتي تتمـاسّ مـع الجمهـور المسـلم، في الحصـول عـلى مكاسـب سياسـيّة وماليّـة.

وعـادة مـا يصـوّت المسـلمون في أوروبـا إلى أحـزاب اليسـار، شـأنهم في ذلـك شـأن الجماعـات المهاجـرة، وإن كان ذلـك لا يعـني الافتقـار إلى التّنـوع داخـل الجاليـة المسـلمة، خصوصـاً الجيلـين؛ الثّـاني والثّالـث.

الإسلاموفوبيا: كيف يوظّف الإخوان معاناة المسلمين سياسيّاً؟

باستطاعة الإخوان تدمير المرشّحين والسيّاسيّين المعادين لهم من خلال اتّهامهم بالإسلاموفوبيا. ويؤكّد فيدينو أنّه بالرّغم من حقيقة تعرّض المسلمين لممارسات عنصريّة وتمييزيّة من قِبل بعض شرائح المجتمع الغربيّ، إلّا أنّ ذلك لا ينفي أنّ ورقة الإسلاموفوبيا تُستَخدم كسلاح سياسيّ ناجع بأيدي الإخوان المسلمين. فالإخوان يُبالغون بشأن بعض الوقائع المعادية للمسلمين من أجل تعزيز الشّعور بأنّ الأخيرين هم «جالية تحت الحصار»، وبأنّ الإخوان هم المدافعون الوحيدون عنهم.

أيضاً، صارت ورقة الإسلاموفوبيا فعّالة بقوّة في إسكات المنتقدين للإسلامويّة وإجبار صنّاع القرار على العمل مع المنظّمات التّابعة للإخوان. فتهمة الإسلاموفوبيا لا توجّه فقط ضدّ المتحاملين أو المنتقدين للإسلام، وإنّما يواجَه أيّ انتقاد لشخصيّة أو منظّمة إخوانيّة، كما يشير الباحث، باتّهامات بالعنصريّة والإسلاموفوبيا.

وعلاوة على ذلك، يلعب الإخوان على أوتار تاريخيّة معيّنة تختلف بين دولة وأخرى: إنّهم ينعتون نقّادهم في أمريكا بالمكارثيّين، وفي إيطاليا بالفاشيّين، وفي بلدان أخرى بأصحاب العقليّة ما بعد الاستعماريّة. وكما يلخّص نهجهم واحد من السّياسيّين الأمريكيّين: «اعطونا المال أو سنقول إنّكم على عداوة مع الإسلام».